(١٨) الإيثار

حرص الإسلام على تربية الضمير الإنساني وإقامة المجتمع المثالي، الذي يقوم على دعائم المحبة والإخاء والعدل والتسامح والبر والإيثار والتعاون، فأوصى أتباعه بالفضائل، وحثّهم على المكارم، وشرع لهم أقوم سبيل إلى خير الدنيا والدين.

ومن هذه الفضائل: (الإيثار)، وهو خلق إسلامي نبيل، له أكبر الأثر في تآلف القلوب، وجذبها، وتآلف الأمة وتوحد أبنائها، وإسعاد الفقراء والموسرين.

فيسعد الفقير بإيثار الموسر له، وإحسانه إليه، ويجد الموسر لذة العطاء، وسعادة الإخلاص في البذل، فتهدأ الضمائر، وتسكن النفوس، ويطمئن العباد، فتختفي الأثرة من قلوب الأنام، ويسود الحب والوئام.

"والإيثار ضد الشح، فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه، والشحيح حريص على ما ليس بيده، فإذا حصل بيده شح

عليه، وبخل بإخراجه، فالبخل ثمرة الشح، والشح يأمر بالبخل"[١٢٣].

والإيثار ضرباً من الجود، وفضيلة من فضائله، التي بها يستكمل المرء غاية الجود، فيعرف به.

وجاء لفظ (يؤثرون) في القرآن مرة واحدة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[١٢٤].

والإيثار نقيض الأثرة[١٢٥]، وهو أعلى ضروب الكرم والسخاء، وأسمى مراتب البذل والعطاء[١٢٦].

وقد أدرك المؤمنون أثر البذل في توطيد أواصر المحبة في القلوب وكسبها، وإرساء دعائم الأخوَّة في النفوس، وقيمة الإيثار في تآلف الأرواح وتوحدها، فجادت أيديهم بما تملك، وانصرفت أعينهم عما لا تملك، وبرزت دواعي الرحمة في القلوب المؤمنة، يحركها شعور قوي بالإيمان إلى المزيد من البذل والعطاء.

وتأكد معنى الإيثار في القلوب، فزالت منها الأثرة والأنانية، ومحت المحبة ظلام البغض من القلوب، وغسلت النفوس من أدران المقت والحسد، فسمت الأرواح على ذاتيتها، وارتقت النفوس على ماديتها، وتحرّرت من عشقها لما تملك، وحبها لما تجمع، ونظرت إلى

من حولها لتسبل عليه رداء السماحة والجود، وتدفع إليه يد المعونة والمساعدة، وتقدم له نسمات الود والصفاء.

وامتدت ظلال الإيثار لتشمل الوجود جميعاً، فوجد الطير والحيوان مكاناً له في قلب الإنسان، وعرفت البشرية - في ظل الإسلام - لوناً فريداً من البذل والعطاء ليس فقط لبني الإنسان، وإنما كذلك للطير والحيوان.

وكان النبي ﷺ شديد الإيثار، حتى أشفق عليه أصحابه من شدة إيثاره.

عن ابن المنكدر قال: سمعتُ جابراً رضي الله عنه يقول: ما سُئل النبي ﷺ عن شيءٍ قط فقال: لا[١٢٧].

وبلغ من شدة إيثاره أنه كان يؤثر أصحابه على نفسه بما يملك مع شدة حاجته إليه.

فعن سهل بن سعد قال: جاءت امرأةٌ إلى النبي ﷺ ببردة - فقال سهل للقوم: أتدرون ما البُردة؟ فقال القوم: هي شملة، فقال سهل: هي شملة منسوجة فيها حاشيتها - فقالت: يا رسول الله، أكسوك هذه؟ فأخذها النبي ﷺ محتاجاً إليها فلبسها، فرآها عليه رجل من الصحابة فقال: يا رسول الله، ما أحسن هذه فأكسنيها،

فقال: "نعم"، فلما قام النبي ﷺ لامه أصحَابُه، قالوا: ما أحسنت حين رأيت النبي ﷺ أخذها محتاجاً إليها ثم سألته إيَّاها وقد عَرَفْتَ أنه لا يُسألُ شيئاً فيمنعه، فقال: رجوت بركتها حين لَبِسَها النبي ﷺ لعلي أُكفَّنُ فيها(١٢٨).

وقد ضرب الأنصار أعظم الأمثلة في الإيثار والبذل والعطاء، حينما آووا من هاجر إليهم من المسلمين، وقاسموهم معيشتهم، حتى إن الرجل منهم كان يقتسم الدار والمال والثوب مع أخيه المهاجر، بل وبلغ ببعضهم أن ينزل عن بعض زوجاته فيطلقها ليتزوجها أخوه المهاجر إذا كان عزباً معسراً.

ومن صور الإيثار بين الصحابة - رضي الله عنهم -: إيثار الأشعريين بوصف رسول الله ﷺ لهم في قوله: "إن الأشعريين، إذا أرملوا في الغزو، أو قَلَّ طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوبٍ واحدٍ، ثم اقتسموه بينهم في إناءٍ واحد، فهم مني وأنا منهم"(١٢٩).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "دعا النبي ﷺ الأنصار إلى أن يُقْطِعَ لهم البحرين، فقالوا: لا إلا أن تُقْطِع لإخواننا من المهاجرين مثلها، قال: "إمَّا لا فاصبروا حتى تلقوني، فإنه سيصيبكم بعدي أَثَرَة"(١٣٠).

صور الإيثار

صور الإيثار متنوعة:

١ - الإيثار بالمال: فهو بذله للمحتاج في رضا وسخاوة نفس، دون تردد أو مشقة، ومن غير أن يكون في نفس الباذل شيء مما يبذل، فإذا كان المرء في سعة يبذل فضل ماله فذاك الجود والكرم، أما إذا كان مفتقراً إلى ما يبذله، محتاجاً إليه وهو مع ذلك يقدمه إلى مَنْ هو أحوج إليه منه فذاك الإيثار.

٢ - الإيثار بالنفس: فهو أعلى منازل الإيثار، وأعظم درجات الجود، إذ ليس للمرء غاية من ورائه، أو منفعة من جرّائه.

ذلك الإيثار الذي جعل أبابكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصاحب النبي ﷺ في هجرته، ثم يتقدمه إلى الغار؛ ليقيه بنفسه من وحشٍ ضارٍ، أو ثعبان مختفٍ، أو عدوٍ متربص، دون أن يفكر لحظة في الخطر المحدق به في الداخل أو الخارج[١٣١].

٣ - الإيثار بالفضل: فهو تجرد النفس عن أثرتها، وانسلاخها من ذاتيتها، فتؤثر غيرها بالفضل الذي هي مفتقرة إليه، والمجد الذي هي محتاجة إليه.

٤ - الإيثار بالغير: فهو تفضيل الشيء على ما سواه، وإيثاره على غيره، فالإنسان قد يؤثر بعض الثياب على بعض، كما يؤثر بعض الطعام على بعض.

وقد يؤثر بعض الأصدقاء على بعض؛ لأنهم أكثر تقىً وصلاحاً، أو أقوى إيماناً وفلاحاً، أو أغزر علماً وفضلاً.

فهو إيثار محمود ما لم يجلب مضرة، أو يحقق أذىً، أو يفسد ديناً، أو يفضح عرضاً، أو يكشف ستراً، أو يبدد مودةً، أو يكدر صفواً، أو يدفع نفعاً، أو يرفع باطلاً، أو يبخس حقاً، أو ينكر فضلاً.

٥ - الإيثار بالقُرب والطاعات: وقد تكلم الفقهاء فيه، وقالوا: إنه مكروه أو حرام، كمن يؤثر بالصف الأول غيره، ويتأخر هو، أو يؤثر بقربه من الإمام يوم الجمعة، أو يؤثر غيره بالأذان والإقامة[١٣٢].

دوافع الإيثار:

قال الإمام الشافعي -رحمه الله-: "رضا الناس غايةٌ لا تُدرك، فعليك بما فيه صلاحُ نفسك فالزمه".

قال ابن القيم -معقباً على ذلك-: "ومعلوم أنه لا صلاح للنفس إلا بإيثار رضا ربها ومولاها على غيره"[١٣٣].

وذلك بطلب الخير والسعي إلى القرب من الله، والفوز بثوابه ورضاه.

فمن دوافع وبواعث الإيثار:

١ - الإيمان بالله والرغبة في ثوابه.

٢ - صدق المحبة، وإخلاص المودة:

فإن المرء متى صدقت محبته، وأخلص مودته، فإنه يؤثر مَنْ أحبه بالخير، ويرفعه فوق نفسه، ويجعل همته رهن إشارته..

ولا يتحقق معنى الإيثار إلا بتمام الصدق في المحبة والإخلاص في المودة، فإن فقد الصدق والإخلاص، فإن الرياء يأخذ طريقه إلى القلوب، ويتخذ الغش والمراء سبيله إلى النفوس.

٣ - الكرم والجود والسخاء:

فحينما يتأصل معنى الكرم في النفوس يتجلى فيها الإيثار في أروع صوره وأجل معانيه.

٤ - تعظيم الحقوق:

ومما يعين على الإيثار، ويبعث عليه: "تعظيم الحقوق، فإن عظمت الحقوق عنده قام بواجبها، ورعاها حق رعايتها، واستعظم

إضاعتها، وعلم أنه إن لم يبلغ درجة الإيثار لم يؤدها كما ينبغي، فيجعل إيثاره احتياطاً لأدائها"[١٣٤].

٥ - الزهد في الحياة:

فالزهد يحرّر النفس من تعلّقها بالمادة والأشياء، ويعتقها من حبها للأموال والشهوات، ورغبتها في المدح والثناء.

٦ - مقت الشُّح:

وقد يكون الدافع إلى الإيثار ما جُبلت عليه النفس من حبها للبذل والسخاء، ومقتها للشح والتقتير.

فإذا ما وقر في القلب مقت الشح وبغضه "التزم الإيثار، فإنه يرى أنه لا خلاص له من هذا المقت البغيض إلا بالإيثار"[١٣٥].

وهذا الدافع له جانبان:

أحدهما: إيماني، فهو الذي يدفع المؤمن إلى السخاء استجابة لأمر الشرع، وامتثالاً لتعاليم الدين.

الثاني: أخلاقي، فهو الذي عرفته البشرية منذ أقدم العصور، فمجَّدت الكرم والسخاء، وذمت الشح والإمساك.

٧ - الرغبة في مكارم الأخلاق:

فالمؤمن حريص على تحري الخير وطلب الفضيلة، يدفعه الإيمان الصادق العميق إلى مكارم الأخلاق ومعالي الصفات.

وقد أشار ابن قيم الجوزية - رحمه الله - إلى ذلك حيث جعل الرغبة في مكارم الأخلاق مما يعين على الإيثار فيبعث عليه "وبحسب رغبته فيها يكون إيثاره؛ لأن الإيثار أفضل درجات مكارم الأخلاق"[١٣٦].

آداب الإيثار:

وللإيثار آداب على المسلم أن يلزمها ليتحقق المعنى الحقيقي من وراء الإيثار، وحتى لا تضيع قيمة بذله، ولا يفسد معنى إيثاره.

ومن هذه الآداب:

١ - عَدَمُ المَنِّ:

فإن المنَّ يفسد المودةَ، ويُذهب الأجر، ويدفع الثواب، فيحبط العمل، ويبطل النفع.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ﴾[١٣٧].

فالمؤمن إنما ينفقُ ابتغاء وجه الله، ورجاء رحمته، وطلب مثوبته، فلا يرجو الثناء من الناس، ولا ينتظر الشكر منهم، ولا يرقب الجزاء على إنفاقه إلاّ من الله، ولذا فهو لا يُذَكِّرُ الناس بعطائه، ولا يُباهي بإيثاره، ولا يتطاول على خلق الله، حتى لا يحبط عمله، ويضيع أجره.

٢ - الإخلاص والصدق:

من أهم دعائم النجاح في أي عمل يقوم به الإنسان أن يتوفر لديه الصدق، والإخلاص في النية؛ لأن الصدق والإخلاص يشحذ العزم، ويقويّ الإرادة، ويهيء النفس على التمرس بالبذل والجد في السعي.

٣ - التجرد من المنفعة:

فينبغي على المؤثر أن يتجرد في إيثاره من كل الدوافع والبواعث إلى المنفعة، وأن يكون إيثاره غايةً لا وسيلة، أو هو وسيلةٌ إلى كسب رضا الله سبحانه، والفوز بثوابه في الآخرة، فإذا تحقق النفع عرضاً -دون قصد الانتفاع- فإنّ ذلك لا يفسد الإيثار، ولكن ينبغي على المؤمن ألاّ يعمد -من وراء إيثاره- إلى تحقيق تلك المنفعة.

٤ - إيثار الغير بما هو محتاج إليه[١٣٨]:

وهذا هو غاية البذل وجوهر الإيثار، وقد سطّر الأنصار صفحات ناصعة من الإيثار، وضربوا أروع الأمثلة في ذلك، وبلغوا في الإيثار مبلغاً لم يرق إليه سواهم.

فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قدم علينا عبدالرحمن بن عوفٍ وآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع وكان كثير المال، فقال سعد: قد علمت الأنصار أني من أكثرها مالاً، سأقسم مالي بيني وبينك شطرين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فأطلّقها حتى إذا حَلَّت تزوجتها. فقال عبدالرحمن: بارك الله لك في أهلك، فلم يرجع يومئذٍ حتى أفضل شيئاً من سمنٍ وأقطٍ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء رسول الله ﷺ وعليه وضَرٌ من صُفْرةٍ فقال له رسول الله ﷺ: "مَهْيَمْ؟" قال: تزوجتُ امرأةً من الأنصار، فقال: "ما سُقتَ لها؟" قال: وزْنَ نواةٍ من ذهبٍ أو نواةً من ذهبٍ، فقال: "أَوْلِمْ وَلَو بِشَاة"[١٣٩].

علامة الحبّ: الإيثار

(١٩) الدعاء

إن من نعمة الله تعالى على عباده أن هيّأ لهم الأسباب الموصلة إليه، إذ إنه لا غنى للعباد عن خالقهم سبحانه وتعالى بأيّ حال من الأحوال، ومن أهم ما يقرّب إلى الله سبحانه وتعالى دعاؤه ورجاؤه والاستعانة به، فبه يعبد الإنسان ربه، ويتحقق مطلوبه، وينال مبتغاه، ويحصل على رضا ربه جلّ وعلا.

والدعاء من أقوى الأسلحة التي يستخدمها الداعية لملء فراغ وقته، وطلبه للعلم؛ لأن الدعاء هو العبادة، والله سبحانه وتعالى قال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(١٤٠).

والدعاء عبادة يؤجر صاحبها بتقربه إلى الله تعالى فيه، يقول تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾(١٤١).

وفي الدعاء دفع الشرور والآثام عن الداعي سواء كانت في الدنيا أو الآخرة.

والدعاء للمسلمين أو لأخيك المسلم في ظهر الغيب من الروابط القوية والوسائل الأخوية لتذكر أخوتهم وكسب قلوبهم.

فكما أن الإنسان يدرّب نفسه على حب إشاعة الخير في المسلمين، وعلى العفو عند المقدرة، فينبغي أن يدرب نفسه على الدعاء لأخيه المسلم.

فالدعاء للمسلم في ظهر الغيب عبادة مضمونة الإجابة؛ لأنك إذا دعيت لأخيك فهناك مَلَك يُؤمِّن على دعائك ويقول: "ولك مثل ذلك"، قال ﷺ: "ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب، إلاّ قال المَلَكُ: ولك بمثل"(١٤٢).

فالمَلَك يُؤمِّن، وهو لا يعصي الله سبحانه، وبالتالي فهو - بإذن الله - مضمون الإجابة، قال تعالى: ﴿**لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾(١٤٣).

فأنت إذا أردت حاجةً فوجّه الدعاء إلى ربك لأخيك في ظهر الغيب، فلربما يستجيب الله لك قبله، بإذن الله سبحانه وتعالى.

إذن عبادة الدعاء للمسلمين في ظهر الغيب، لا يمارسها إلا مَنْ أحس بفرحة الانتماء إلى المسلمين، ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾(١٤٤).

ففرحة الانتماء إلى الإسلام تحتم عليك بين الحين والآخر أن تتذكر أحبابك في مشارق الأرض ومغاربها، فتدعو لهم وتستغفر لهم، فيصبح لك قلب مرتبط بهم، همّه همّ المسلمين...

فإذا كان حماسك للإسلام والمسلمين كحماسك لابنك المريض عند ذلك تكون من الدعاة الصادقين المخلصين، ولهذا وصف الله سبحانه نبيه بذلك الشعور فقال: ﴿**عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾(١٤٥).

مَنْ أدمن الدعاء، ولازم قرع الباب، فُتح له

(٢٠) قبول الاعتذار

إن من وسائل كسب قلوب الآخرين إلى صفك، ومن وسائل التعرف عليهم وبناء العلاقة معهم "أن تقبل معاذير مَنْ يأتيك معتذراً".

وهي وسيلة أو قاعدة مرتبطة بقاعدة "العفو والصفح والتسامح"، ولكن لها خصوصيتها التي جعلت من المستحسن إفرادها كقاعدة أو وسيلة من وسائل كسب الناس وكيفية التعامل معهم، وهذه الخصوصية هي أن يطلب المخطئ العفو، ويرجو ممن أساء إليه الصفح، ويقدم اعتذاره وانكساره واعترافه بزلته، وربما يتعهد بعدم العودة إليها، أما العفو فيمكن أن يكون دون أن يطلب المخطئ الصفح ممن أساء إليه.

إن قبول اعتذار المعتذر خُلق كريم يدل على فضل صاحبه وعلو شأنه، ولا يليق بالمسلم أن يرد هذا الاعتذار، ويرفض ذلك الانكسار، لاسيما إذا جاءه المعتذر إلى بيته أو مجلسه أو إلى مقر عمله، أو شفع له بعض الكرام من أهل العلم والدين والمروءة، والوجاهة وكبر السنِّ.

إن من أصعب شيء على نفوس الناس أن يتوقعوا الخير أو يرجوه من إنسان ثم يفاجئهم بخلاف ذلك، فتتكسر قلوبهم، وتسوَّدُ الدّنيا أمامهم ؛ ولقد اعتاد الناس أن يَصِفُوا مَنْ يردّ اعتذار المعتذر بسوء الخلق، وغالباً ما يحجمون عن التعامل معه، ويقطعون علاقتهم به.

لقد ختم الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - حياته بالعفو عن الجلاد الذي ألهب بالسياط ظهره، وذلك عندما سمع الناس صائحاً ينادي خارج المنزل، ويقول: يا أحمد، يا أحمد، فأوسعوا له حين استدعى الإمام أحمد، فإذا هو شيخ كبير ينشج نشيج النساء في لوعة وحرقة، ويقول: لقد كنتُ ممن قام بتعذيبك في عهد المعتصم وإني لأرجو المعذرة، فيهز الموقف الإمام أحمد: يا بني ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾[١٤٦]، ماذا ينفعك أن يُعذّب أخوك بسببك؟ وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[١٤٧]، فإذا كانت القيامة وجثت الأمم بين يدي الله رب العالمين، نودوا: ليقم من كان أجره على الله، فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا، وإني لأرجو أن أكون واحداً منهم[١٤٨].

ولكن بالرغم من ضرورة الصفح وقبول اعتذار المعتذر، إلا أنه لا ينبغي أن يكون ذلك في كل الأحوال، ومع كل الناس، إذ يمكن

للمرء أحياناً أن لا يقبل الاعتذار وذلك إذا تيقن أن هذا القبول لا ينفع المعتذر ولا يؤدبه، أو إذا علم أن المعتذر يستخدم هذا الاعتذار من قبيل المراوغة والمخادعة والاستغفال، أما غير ذلك وفي غالب الأحوال والظروف، فإن الأولى بالمرء أن يسمو بنفسه فيقبل انكسار المنكسرين واعتذار المعتذرين.

ليس بأخيك مَن احتجت إلى مداراته

(٢١) عدم السخرية

إن الاستهزاء بالآخرين والسخرية منهم آفة يقع فيها كثير من الناس ممن لم يوفقوا إلى عقل رشيد، وهو أمر حرّمه الإسلام؛ لما فيه من هدم للصلات وتدمير للعلاقات فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ**﴾[١٤٩].

إن معنى السخرية هو الاستهزاء والاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء، وإذا كان بحضرة المُستَهزأ به لم يُسَمَّ ذلك غيبة، وفيه معنى الغيبة[١٥٠].

قال ﷺ: "... المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ههنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم"[١٥١].

"فتأمل قول الرسول ﷺ: "بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم"، كيف أعاد النهي عن تحقير المسلم بعد قوله: "ولا

يحقره"، وما ذاك إلا لما يؤدي إليه هذا الخلق المشين من آثار سيئة على كيان الأمة الإسلامية.

ومع الأسف فإنك تجد بعض المسلمين يحتقرون إخوانهم، ويسخرون منهم؛ لاختلافهم عنهم في الجنس؛ أو اللون، أو لتدني حالتهم المادية والاجتماعية، فيغمزونهم ويعيبونهم، وكأنهم لم يسمعوا قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾(١٥٢).

وكأنهم لم يسمعوا قول الرسول ﷺ: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبهم وأعمالكم"(١٥٣)(١٥٤).

فمن الوسائل لكسب قلوب الآخرين عدم السخرية بهم، وعدم تحقيرهم، أو الاستهانة بهم.

فالمسلم لا يحتقر أخاه من أجل لونه أو حسبه أو نسبه، أو من أجل مرتبته ووظيفته ومنصبه؛ أو أي أمرٍ من أمور الدنيا، فإذا احتقرت أخاك لأمر من أمور الدنيا فقد ظلمته في الأخوة في الله.

فلا ينبغي للمسلم أن يغتر بماله أو بجسمه أو بصورته أو بمنصبه أو بجاهه بين الناس أو بمكانته في المجتمع، فإن الله سبحانه لا ينظر إلى ذلك كلّه، وإنما ينظر إلى الأعمال والقلوب.

فلابد أن يكون الاهتمام الأكبر في إصلاح القلوب والأعمال، لا إصلاح المظاهر، والغفلة عن إصلاح القلوب والأعمال، فلا قيمة للصور والأجسام والمال والجاه.

فكم من إنسان يعظّمه الناس، لمنصبه، أو ماله، أو مكانته، أو غير ذلك من الاعتبارات الدنيوية، إذا قَدِم قام له الناس، وإذا غاب سأل عنه الناس، وهو لا يزن عند الله جناح بعوضة؛ ولهذا روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة"(١٥٥).

وكم من إنسان تحتقره العيون وتزدريه وتتجاوزه إلى غيره، ولا تتحمل النظر إليه، بمجرد أن تقع عليه العين تلقائياً يقفز النظر ويحوله إلى غيره؛ ويبحث عن شخص مرموق في المجتمع يملأ العين - كما يقولون -، أما هذا المحتقر فحتى النظر إليه لا يتحمله بعض الناس، بل يتجاوزه إلى غيره، وربما وصلت حقارته في النفوس إلى أنَّ من يمرّ به لا يُلقي له بالاً، ولا يقرأ عليه السَّلام، لكن ما قيمة هذا الشخص؟!

أقول: ربما أن لهذا المحتقر عند الله عز وجل المنزلة العظيمة، حتى إنه لو أقسم على الله لأبرَّه.

فتأمل معي ما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: "رُبَّ أشعث مدفوعٍ بالأبواب لو أقسم على الله لأبرَّه"(١٥٦).

وفي رواية للبزار عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: "ربّ ذي طِمرين، لا يُؤْبَهُ له، لو أقسم على الله لأبره"(١٥٧).

لاحظ: أشعث الشكل ورث الهيئة -والطمر: الثوب الخلق- مدفوع بالأبواب... هل تتصور رجلاً يُدفع بالباب إلاّ أنه ليس له قيمة!! ربما الحيوان لو وقف عند الباب ما دُفع أحياناً... لكن هذا الشخص مجرد فتح الباب تلقائياً يُدفع.. حقارة متناهية" لكن "لو أقسم على الله لأبره"، فالأصل العظيم والقاعدة العظيمة وميزان التفاضل: هو التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(١٥٨)، وهو أن الميزان والعبرة ليست بالمظاهر وإنما هي بالقلوب والأعمال، فقد يكون هذا الذي تحتقره خيرٌ من ملئ الأرض من أمثالك..

فتحقير المسلمين أو كونك تجد أن هذا محتقر ؛ فهو شعور خاطئ، فإذا وجد عندك هذا الشعور فأنت على خطر، فصحح هذه المشاعر، فإن النبي ﷺ بيّن أن الرجل يكفيه من الإثم والشر أن

توجد فيه هذه الخصلة الذميمة المقيتة وهي: احتقار غيره من المسلمين، فهذه الخصلة تدل في الغالب على إعجاب المرء بنفسه، وأنه يرى لنفسه أو يرى بنفسه فضلاً على غيره، أي يحس أو يجد الساخر في نفسه أنّه أفضل من الذي يسخر منه.

أنواع السخرية

١ - السخرية بالله ورسوله:

فهي أعظم أنواع السخرية، ولم تعرف البشرية منذ أن وجدت السخرية بذات الله سبحانه إلا قبل قرن ونصف، عندما ظهرت بذرة الإلحاد في أوروبا ورفعت لوائها الشيوعية الحاقدة التي أنكرت وجود الله سبحانه، وأصبحت أمتنا - لأسباب كثيرة - مستأنسة بما تدسه النفوس الضعيفة من خلال الكلمة المسموعة أو المقروءة أو الرسوم الهزيلة (الكاريكاتير) أو الطرفة، فهذا الذي يقول شعراً على مسامع الناس يسخر ويقول: مللنا وجود ربنا فلنبحث عن رب غيره.

وصورة نشرت في إحدى البلاد أن رجلاً يجلس وأمامه امرأة قد وضعت فخذاً على فخذ وهو يقرأ: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾[١٥٩].

وصورة لديك وحوله دجاجات تسع. وكتب تحتها: محمد وزوجاته التسع[١٦٠].

٢ - **السخرية باليوم الآخر والغيب من جنة ونار**، وعذاب أو نعيم في القبر: وكل ذلك ثابت في الكتاب والسنة، ومن السخرية إنكار البعث بعد الموت.

٣ - **السخرية بالمؤمنين:**

وهي قديمة قدم البشرية على الأرض من قبل نوح عليه السلام، قال تعالى: ﴿ **وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ** ﴾[١٦١].

فليس غريباً أن يتهم المسلم بالتطرف والإرهاب والرجعية والتخلف، ويكرم كل عاهر وعاهرة، وصدق الله العظيم حيث قال: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ** ﴾[١٦٢].

فكلُّ من استهزأ بالله -عز وجل-، أو برسوله ﷺ، أو بالقرآن، أو بدين الإسلام، ولو كان على سبيل المزاح، أو إضحاك القوم، فإنه كافر مرتد يجب عليه أن يتوب إلى الله -تعالى-، وإذا تاب، فإن الله -تعالى- يقبل توبته، والله أعلم.

تسودُ النّاس بحفظ لسانك

(٢٢) الرَّحْمَة

من الوسائل والقواعد المهمة لكسب قلوب الآخرين "الرحمة". ونقصد بهذه القاعدة تغليب التعامل الإيجابي على التعامل السلبي، والرحمة على الشدة.. إن بعض الناس يميلون إلى الفظاظة والرفض والشدة والقسوة وربما الإضرار بالآخرين من أجل أن يثبتوا وجودهم وهيمنتهم وسلطانهم فيخافهم الناس ويُذَلوا بين أيديهم، ولا شك أن هذا مرض نفسي ابتُلي به بعض المسؤولين.

إن هذا السلوك يؤدي إلى نفرة الناس بعضهم من بعض، ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[١٦٣].

ويقول الرسول ﷺ: "إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه"[١٦٤].

وعن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "مَنْ يُحرم الرفق، يُحرم الخير"[١٦٥].

وجاء رقيق (غلام) لأبي ذر رضي الله عنه وقد كسر رجل شاة فقال له: من كسر رجل هذه؟ فقال الغلام: أنا فعلته عمداً ؛ لأغيظك فتضربني فتأثم، فقال أبو ذر: لأغيظن من حرضك على غيظي، فأعتقه في سبيل الله[١٦٦].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه قد يضطر الإنسان أحياناً إلى أن يتعامل بشدة، وأن يتخذ القرار الأكثر قسوة وحزماً من أجل مصلحة يقدرها، وهذا الأمر مطلوب ولكن ليس دائماً[١٦٧]، ولذا يقول الشاعر:

فقسا ليزدجروا ومن يَكُ راحماً

فليقْسُ أحياناً على من يرحمِ

الرحمة دليل رِقَّةِ القلب، وسُمُوٌّ النَّفْسِ

(٢٣) الزيارة

لقد رغّب فيها وحث إليها الرسول ﷺ؛ وذلك لتدعيم العلاقة بين الإخوة وزيادة الرابطة الإيمانية، فالزيارة وسيلة لكسب الآخرين، قال الرسول ﷺ: "ألا أخبركم برجالكم من أهل الجنّة؟ النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والصدِّيق في الجنّة، والمولود في الجنة، والرجل يزور أخاه في ناحية المصر في الله في الجنة"(١٦٨).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من عاد مريضاً أو زار أخاً في الله، ناداه مُنَادٍ: بأن طِبْتَ، وطَابَ ممشاك، وتبوأتَ من الجنَّةِ منزلاً"(١٦٩).

فبادر - بقدر ما تستطيع - بزيارة أخيك بين فترة وأخرى، وقل له: إنْ زرتنا فَبِفَضْلِكَ، وإن زرناك فلفضلك، فلك الفضل زائراً ومزوراً.

"وهذا لأن الزيارة داعية لتقارب المؤمنين وتجانسهم وتعارفهم، كما أنها تنمي المودة والمحبة في قلوبهم فيكونون إخواناً حقاً كما أمرهم الله تعالى.."(١٧٠).

من آداب الزيارة:

١ - أن يحسن نيته في مقصد هذه الزيارة، كأن ينوي بها زيادة المحبة في الله، أو اكتساب الثواب الحاصل من الزيارة، أو التناصح، والاستفادة من الوقت، أو صلة رحمه، وأداء حقوقهم، ونحو ذلك.

٢ - الأفضل كونها بين فترة وأخرى، لا قليلة فتنتج الجفاء، ولا كثيرة فتؤدي إلى السآمة والملل، قال ﷺ: "زُر غباً، تزدد حباً"(١٧١).

وقيل:

زر غِبّاً تزد حباً فمن

أكثر التكرار أقصاه الملل

٣ - اختيار الوقت المناسب للزيارة، فليس من المناسب الزيارة في أوقات الراحة والنوم، أو أوقات الطعام، وقد يكون لبعض الناس أوقات معينة لا يحبون أن يأتيهم فيها أحد، فلا ينبغي الإثقال عليهم بالزيارة فيها.

٤ - ترك الإثقال على المزار بطول البقاء أو غير ذلك، إلا إن عَلم الزائر أن صاحبه يحب بقاءه لمدة أطول.

وينبغي للزائر أن يراعي حال المزور، فلعله مرتبط بموعد، أو مشغول، ونحو ذلك، وهذا غالباً يتبين من حال الشخص، كأن تبدو عليه علامات الملل، أو يكرر النظر إلى الساعة، أو يكثر الدخول والخروج، وقد يصرّح أحياناً بكونه مشغولاً، فعندها على الزائر أن يستأذن ويخرج.

٥ - أن يتجمل، ويحسن ملبسه وهيئته، ويزيل عن نفسه الروائح الكريهة، قال أبو العالية: "كان المسلمون إذا تزاوروا تجمّلوا"(١٧٢).

ومن الفرص الثمينة والنفيسة التي ينبغي استغلالها واغتنامها لكسب الآخرين: المناسبات الاجتماعية، وهي كثيرة، بعضها عام وبعضها خاص، بعضها مُفرح وبعضها مُحزن، ومنها على سبيل المثال: الزواج، ومناسبة النجاح، والعزاء، والأعياد، والقدوم من السفر، وأيام الجمع، ورمضان، وفترات الحج والعمرة، والولائم، والمرض...

وتعامل الناس مع هذه المناسبات إما أن يكون بالحضور الشخصي، أو بالاتصال الهاتفي، أو بالرسائل المكتوبة أو بغيرها.

والذي يدعونا إلى التأكيد على هذه المناسبات هو؛ لأنها فرص يجتمع فيها عدد كبير من الناس، ومن ثمّ يمكن تكوين

علاقات كثيرة وكسب بعض الناس في فترة زمنية محدودة، كما أن الزيارة والاتصال في هذه المناسبات أمر طبيعي لا تكلف فيه ولا حرج.

هذا بالإضافة إلى أن كثيراً من الناس، لاسيما الدعاة والعلماء، ليس لديهم الوقت الكافي للقيام بالزيارات الكثيرة خلال فترة زمنية قصيرة، ولذا فإن هذه المناسبات قد تغنيهم عن كثير من تلك الزيارات(١٧٣).

ولقد كان لهذه المناسبات الاجتماعية أثر كبير في نفوس الناس، بل وفي إدخال بعض المسلمين إلى الإسلام، فعن أنس رضي الله عنه قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه فقال له: "أسلم"، فنظر إلى أبيه، فقال أبوه: أطع أبا القاسم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: "الحمد لله الذي أنقذه من النّار"(١٧٤).

فانظر إلى هذا الموقف وهذه الزيارة كيف أثرت في نفس هذا الغلام ودخل في الإسلام، فدلّ هذا على أن المناسبات الاجتماعية فرص ينبغي اغتنامها لجلب وكسب قلوب الآخرين، كما أن هذا الخلق الرفيع من الرسول ﷺ فن من فنون التعامل مع الآخرين، وسهم نافذ إلى قلوبهم، حتى لو كان موقفاً صغيراً أو قصيراً.

لذلك فلربما يكون لك إخوان لا تلقاهم إلاّ كل سنة مرة وأنت أوثق بمودتهم، مِمَنْ تلقى كل يوم.

فليس معنى المودة أن نلتقي كل يوم، وليس عدم اللقاء هو عدم المحبة، ولو تفرغ الإنسان لزيارات الأصدقاء لما وجد وقتاً لأداء الواجبات الأخرى مثل طلب العلم أو تربية الأبناء أو حقوق العشرة الزوجية أو غيرها.

ليس كل غَيبة جفوة، ولا كلّ لقاء مودة، وإنما هو تقارب القلوب

(٢٤) اللّطف في التعامل

أو حسن المعاملة، وذلك من خلال التعامل بأدب ولطف، والتزام الأخلاق الحسنة التي يأمر بها الشرع، وتجنب ذميم الأخلاق من سب وشتم وسخرية وغيرها، والقدوة التامة في كل ذلك رسول الله ﷺ.

يقول أنس رضي الله عنه: خَدَمْتُ النبيَّ ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أفّ، ولا لِمَ صنعت؟ ولا أَلاَ صنعت؟[١٧٥].

ومما تتميز به شخصية المسلم أنه رجل ذو خلق كريم، وتعامل حسن، وسلوك حميد، مقتدياً في ذلك كله بقدوته الأول محمد ﷺ الذي أثنى الله تعالى عليه في هذا الجانب، فقال: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾[١٧٦].

وسئلت عائشة - رضي الله عنها - عنه ﷺ فقالت: "كان خلقه القرآن"[١٧٧].

وزخرت سنته ﷺ بالحث على التزام الأخلاق والتأدب بآداب الإسلام، قال ﷺ: "أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً"[١٧٨].

وقال ﷺ لمن طلب منه الوصية: "اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن"(١٧٩).

وربط الإسلام بين العبادة والأخلاق، وحسن المعاملة، فالعابد القانت لله هو الذي استفاد من عبادته بتقديم أخلاقه وسلوكه، يقول الله تعالى - عن الصلاة -: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾(١٨٠).

ويقول الرسول ﷺ - في شأن الصيام -: "إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابّه أحد أو شاتمه، فليقل إني صائم"(١٨١).

ويقول سبحانه وتعالى - في شأن الحج -: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾(١٨٢).

وهكذا نجد النصوص الشرعية متواترة في الحث على الأخلاق، وحسن المعاملة، والتمسك بها، والتزامها، فالمسلم الحق هو صاحب الخلق الكريم، والسلوك المستقيم، والصفات الحميدة، مثل: الصدق، والكرم، والتواضع، والصبر، والحياء، والبعد عن الفواحش، وغض البصر عن المحارم وغيرها.

فالمسلم يسير في الحياة على علم وبصيرة، ويتعامل مع الآخرين بما يحبّ أن يعاملوه به، فينطلق في تعامله من محبته لهم،

وتمني الخير لهم، والدعاء لهم بكل ما يُصلح حالهم ويسعدهم في دنياهم وآخراهم.

وعلى هذا يجب على مَنْ يريد كسب قلوب الآخرين أن يستعمل الرفق في أمور الدعوة، والمعاملة، فما كان الرفق في شيء إلاّ زانه، ولا نُزِع من شيء إلا شانه.

فالحكمة والموعظة الحسنة واللين أمور أرشدنا الله إلى استعمالها في كسب قلوب الآخرين ودعوتهم، قال تعالى: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾[١٨٣].

وقال تعالى - مخاطباً موسى وهارون، عندما أرسلهما إلى فرعون -: ﴿ **فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ** ﴾[١٨٤]، فإذا كان هذا الأمر باستخدام الملاطفة واللين مع فرعون الذي وصل طغيانه إلى غاية العتو والاستكبار إلى أن بلغ به إلى ادعاء الربوبية، فإن المدعو المسلم - مهما كان فسقه - أولى بالقول اللين واللطف في التعامل.

وانظر إلى لطف النبي ﷺ عندما بال أعرابي في المسجد، فقام الناس إليه ليقعوا فيه، فقال لهم النبي ﷺ: "دعوه وهريقوا[١٨٥] على بوله سَجْلاً من ماءٍ، فإنما بُعِثتم مُيسرين ولم تُبعثوا مُعَسِّرينَ"[١٨٦].

وإذا كان من الواجب استعمال اللطف مع الآخرين (المدعوين)؛ لكسبهم، فإن الأقربين من والد ووالدة، وأخ وذي رحم، أحق بهذا اللطف والرفق وحسن المعاملة.

إن كثيراً من الدعاة عندما يحاولون تغيير المنكر مع الأقربين يستعملون الشدة، ومن ثم يؤدي ذلك إلى الاشمئزاز منهم، والاستهزاء بهم، وتتبعه عثراتهم، وحريّ بهؤلاء الشباب أن يفتحوا قلوبهم لأقربائهم، ويوسعوا لهم صدورهم، بل وييسروا ولا يعسروا عليهم، ويتحملوا كل ما صدر منهم، ويقدموا لهم كل ما استطاعوا من إحسان، وأن يكونوا أحسن أخلاقاً، وأسرع استجابةً إلى الطاعة والصلة من غيرهم من العصاة، وبذلك فإنهم سيكسبون ثقة الآخرين وقلوبهم وحبهم وتقديرهم، ومن ثم فإنهم إذا أمروا بشيء فسوف يطاعون حتى ولو من باب الاحترام والمجاملة في البداية[١٨٧].

فالمسلم الذي يريد أن يكسب الآخرين هو الداعية في نظر الناس، فعليه أن يكون خير مثال للدعوة، وقدوته في ذلك رسول الله ﷺ فقد كان خلقه القرآن، فهذا هو الميزان الذي ينبغي أن يعرض كل إنسان مسلم نفسه عليه ليقوّم خلقه ومعاملته.

حسن الخلق؛ عوناً على الدِّين

(٢٥) جعل الشخص يشعر بأهميته

إن مما يكسب القلوب، ويجعل المسلم يبني العلاقات مع الآخرين، هو "أن يجعل الشخص الآخر يشعر بأهميته"، فهذه القاعدة تعتبر من القواعد المهمة في السلوك الإنساني، ولذا فإن أقسى شيء على الإنسان أن يشعر بالتهميش وعدم الأهمية، ولذا فمن لا يُشعر الآخرين بأهميتهم، أو لا يحسسهم بمكانتهم وقدرهم، أو لا يرفع معنوياتهم - وهو بعبارة أخرى: تشجيعهم -، فإنه يصعب عليه أن يصل إلى قلوبهم، ومن ثم كسبهم إلى صفه.

إن إشعار الآخرين بأهميتهم يكون عن طريق التأكيد على أهمية عملهم أو تفكيرهم أو آرائهم أو حكمتهم أو ذوقهم، أو أي صفة من صفاتهم، أو سلوك من سلوكياتهم.

وبإمكانك أن تنفذ إلى قلب شخصٍ ما بسرعة وسهولة عندما -مثلاً - تناقش موضوعاً ما - وليكن موضوعاً ثقافياً - ثم تلتفت إلى أحد الجلوس، وتقول له: ما رأيك يا فلان في هذا الأمر؟ هنا يشعر هذا الشخص أن لرأيه أهمية وأنه ذو قيمة.

كذلك يمكنك إشعار الآخر بأهميته عند استخدامك لبعض الكلمات المشجعة التي توحي بأهميته وتحسسه بذلك مثل: "وجودك مهم"، "لا يمكن أن يستغنى عنك"، "أنت صاحب حجة قوية، أو مفيدة"، "أنت ممن يُعتمد عليك في كذا.."، "لك تأثير كبير على كذا وكذا.."، "أنت صاحب تجربة أو خبرة كبيرة أو نافعة.."، "سأستشيرك في أمرٍ كذا وكذا.." .. إلخ.

ومن أساليب إشعار الآخرين بأهميتهم: إظهارهم وإبرازهم للعامة عن طريق محاضرة تُلْقى في منتدى، أو مسجد، أو مجلس، أو في مناسبات اجتماعية، كالزواج، أو مناسبة نجاح، أو في الولائم، كقدوم ضيف، أو قدوم مسافر...، مما يكون له بالغ الأثر في نفس المدعو، فيقترب شيئاً فشيئاً إلى أُخوتك..

ومن الأساليب أيضاً: استقبالهم في اللقاءات العامة أو في بيوتهم وإظهار الاهتمام بهم وتقديرهم، فإن ذلك يجعل في نفوسهم أثر كبير ويكسب قلوبهم وودهم.

من ذلك أيضاً: الاتصال بهم سواء مباشرة أو عن طريق غير مباشر، كأن يطلب من شخص آخر الاتصال بهم والسؤال عنهم باسم فلان وهكذا.

"وهناك تجربة في فرنسا، فقد احتل العمال المصانع، ولكن بعض العمال لم يضربوا عن العمل، وقد وُجِدَ أن هؤلاء العمال هم الذين كان لرؤسائهم اتصال بهم.

فالعمال الذين اتصل بهم رؤساؤهم اتصالاً شخصياً، واهتموا بهم كأفراد وقدموا لهم المساعدة هم الذين لم يستجيبوا للإضراب، كما ظهر الحقد العميق من العمال الذين عاملهم رؤساؤهم كآلات. والمسؤول الذي يعامل البشر كآلات يخفق، أما الذي يتعامل معهم كبشر فيحصل على إنتاج أكبر، وإن تساوت فترات العمل الزمنية"[١٨٨].

ولذلك فمن المهم البحث عن الكوامن الطيبة في الإنسان وإثارتها وتشجيعها، وعدم احتقاره والاستهانة به، بل ينبغي تقديره واحترامه ومشاورته حتى وإن لم يُستفد برأيه، فيكفي أن يُستشار ويُدلي برأيه في المسألة؛ ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[١٨٩]، فقد تشاورهم وقد ترى رأياً آخر غير الذي يرون، فإذا عزمت عليه فتوكل على الله.

فإذا قام المرء بعمل حسن وشعر بالتقدير وخاصة من رؤسائه، وثق من نفسه وانطلق بقوة جديدة. فأنت تبني الثقة في الإنسان

عندما تشعره أنه قدّم عملاً طيباً، ولكن البعض يقول عكس ذلك، يقولون: لا تشعره بأنه قدم حسناً لئلا يشعر بالغرور...!

ولكن هذا غير صحيح، بل يُشْعَر بما قدّمه من عمل حسن ويشجع على ذلك.

ولذلك إذا أردت أن تكوّن علاقة حسنة مع إنسان وتكسبه إلى صفك فابحث عن الأشياء الحسنة فيه، وسيكون هناك مزايا حسنة في كل شخص تستحق التقدير.

المؤمن يُحبّ المؤمن حيث كان

(٢٦) النكتة الصادقة

أو النكتة الظريفة.. رغم أهمية الجد في حياة الإنسان، إلا أنه يحتاج إلى فترات يرفه فيها عن نفسه، ويجدد فيها نشاطه، ويزيل بها الملل والسأم عن حياته، إنّ الإنسان جُبِل على حبّ الترفيه والترويح، ومن هنا يحسن بمن يود كسب قلوب الناس أن يتعامل معهم بما يتناسب وفطرتهم، فيدخل الترويح والنكتة والابتسامة والطرفة في تعامله مع الآخرين[١٩٠].

ولقد اعتاد الناس في قديم الدهر وحديثه أن يخلطوا حياتهم بشيء من الدعابة والنكتة، تضفي على حياتهم شيئاً من اللطف والأنس، وهذا جارٍ مع الأصحاب والأقران، ومع الأهل والأولاد، وغيرهم، لا يكاد يخلو من ذلك أحد، لكنهم فيه بين مُقلّ ومستكثر.

وعلى هذا، فلطيف المزاح بالتودد إلى الآخرين، وإيناسهم من جميل الكلام، وحسن القول، ومستحسن الفعل، والصدق في ذلك، فلا بأس به، "وقد كان النبي ﷺ يمزح على هذا الوجه"[١٩١]، فعن

أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله، إنك تداعبنا؟! قال: "إني لا أقول إلا حقاً"(١٩٢).

والمسلم - بوصفه عبداً لله تعالى - لابد أن يضبط حياته بمنج الله في كل شأن من شؤونه، حتى يحقق في نفسه العبودية التامة لله تعالى.

ولأجل كثرة المزاح في الناس اليوم فلابد من معرفة أنواعه وضوابطه الشرعية؛ ليلتزم المسلم بها، ولا يحيد عنها، وليُحَصِّل بسبب ذلك الثواب ؛ ويدفع عن نفسه العقاب.

أقسام المزاح:

أولاً: مزاح محمود: وهو ما له غرض صحيح، مقرون بنية صالحة، منضبط بالقواعد الشرعية.

أمثلته: ممازحة الرجل والديه بأدب، أو أهله وولده، أو ممازحة الأخ المسلم لأخيه بنية إدخال السرور وكسب قلبه ووده، فهذا يثاب عليه المرء.

ومن الأدلة على مشروعيته:

١ - حديث حنظلة الأسيدي رضي الله عنه وفيه أنه قال: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال: "وما ذاك؟" قلت: يا رسول الله، نكون عندك

تذكرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأي العين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا[١٩٣] الأزواج والأولاد والضيعات، نسينا كثيراً، فقال ﷺ: "والذي نفسي بيده، إنْ لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فُرُشِكم، وفي طُرقِكم، ولكن يا حنظلة ساعةً وساعةً"[١٩٤] ثلاث مرات[١٩٥].

٢ - وفي حديث جابر بن عبدالله -رضي الله عنهما- لما تزوج، وسأله النبي ﷺ: "يا جابر، تزوجت؟ " قال: قلت: نعم، قال: "فبكر أم ثيب؟" قال: قلت: بل ثيب يا رسول الله، قال: "فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك" أو قال: "تضاحِكُها وتُضَاحِكُكَ"[١٩٦].

٣ - وفي حديث عائشة -رضي الله عنها- أنها كانت مع النبي ﷺ في سفر، قالت: فسابقته فسبقتُه على رجليّ، فلما حملت اللحم سابقته فسبقني، فقال: "هذه بتلك السبقة"[١٩٧].

٤ - وفي كتاب الأدب عند البخاري -رحمه الله-: بابُ الانبساط إلى الناس، وقال ابن مسعود: خالط الناس ودينَكَ لا تَكْلَمِنَّهُ، والدَّعابة مع الأهل.. وذكر حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: إن كان النبي ﷺ ليخالطُنا حتى يقول لأخٍ لي صغير - يداعبه ويلاطفه -: "يا أبا عُمير ما فعل النغير؟"[١٩٨].

والنغير هو: طائر صغير، فرخ العصفور، وكان يلعب به أبو عمير.

٥ - وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: "يا ذا الأذنين" قال أبو أسامة - أحد رواة الخبر - يعني: يمازحه"[١٩٩].

٦ - وعن أنس رضي الله عنه أن رجلاً استحَمَل رسول الله ﷺ فقال: "إني حاملك على ولد الناقة"، فقال: يا رسول الله، ما أصنع بولد الناقة؟! فقال ﷺ: "وهل تلد الإبل إلا النوق"[٢٠٠].

ثانياً: مزاح مذموم: وهو الذي له غرض فاسد، ونية سيئة، أو كان غير ملتزم بالضوابط الشرعية.

ومن أمثلة ذلك: أن يشتمل على الكذب، أو الأذى والإضرار بالآخرين، أو المزاح مع النساء الأجانب، أو المزاح بالأمور الشرعية، ونحو ذلك.

ومن الأدلة على ذلك:

١ - قول النبي ﷺ: "ويلٌ للذي يحدث بالحديث ليضحك به القوم فيكذب، ويلٌ له، ويل له"[٢٠١].

فالكذب محرّم في الجد والهزل، مذموم في الشريعة، وفي هذا الحديث جاء التهديد الخاص لمن كذب لإضحاك الآخرين؛ وما

ذلك إلا لخطورته وسهولة انجراف النفس فيه مع تشجيع الأصحاب، ومحبة الظهور والتصدّر.

٢ - ولم يقتصر الشرع على النهي عن هذا الخلق الذميم في هذا الموضع بالذات، بل إنّ رسول الله ﷺ قال - حاثّاً على ترك الكذب في المزاح -: "أنا زعيم... ببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً"(٢٠٢).

أما ما فيه أذى وإضرار للآخرين، والإساءة إليهم، أو أخذ حقوقهم وترويعهم، فقد ورد النهي عن ذلك في أحاديث منها:

٣ - عن عبدالله بن السائب، عن أبيه، عن جده، أنّه سمع النبي ﷺ يقول: "لا يأخذنّ أحدكم متاع أخيه لاعباً ولا جاداً، مَنْ أخذ عصا أخيه فليردها"(٢٠٣).

فالرسول ﷺ ضرب مثالاً في أخذ العصا، فما بالك بمن يأخذ ماله، أو سيارته، أو حذائه، أو ساعته، أو محفظته بما فيها؟! أو نحو ذلك.

وأما المزاح بالأمور الشرعية، فهو مذموم شرعاً؛ لأن المزاح بها يعتبر سخرية واستهزاءً، وذلك كفرٌ مخرج من الإسلام، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾(٢٠٤).

ويشبه ذلك الهزل بذكر حملة الدين من الصحابة، والعلماء، والصالحين، كالسخرية بهم، وحكاية أصواتهم، وتقليد حركاتهم، أو ذكر فتاواهم على سبيل الضحك والسخرية.

ثالثاً: مزاح مباح: وهو ما ليس له غرض صحيح، ولا نية صالحة، ولكنه لا يخرج عن حدود الشرع، ولم يكثر منه صاحبه حتى يكون سمتاً له، وهو الذي يطلق عليه بعض الناس (المزاح البريء) إن صدقت عليه العبارة.

فهو ليس بمحمود ولا مذموم، فلا ثواب فيه؛ لعدم الغرض الصحيح والنية الصالحة التي هي مُتَعلَّق الثواب، ولا عقاب عليه لعدم المخالفة الشرعية.

ضوابط المزاح:

يتبيّن لنا مما تقدم أن للمزاح أو النكتة الظريفة لكسب قلوب الآخرين ضوابط ينبغي مراعاتها:

أولاً: الأمور التي ينبغي مراعاتها في المزاح:

١ - النية الصالحة: والمراد أن يستحضر المرء عند مزاحه نيّة فعلٍ خيّر يحبه الله تعالى، وذلك كأن ينوي إدخال السرور على نفسه وأخيه أو زوجه أو والده، أو ينوي بذلك تقريب شخص إلى فعل

الخير، أو كسب مودته وأخوته، أو إجمام النفس لتتقوى على صالح أو أي نية أخرى صالحة.

ويدل على هذا الأصل العظيم: قول النبي ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات"(٢٠٥).

٢ - الصدق: لقول النبي - المتقدم -: "إني لا أقول إلا حقاً"(٢٠٦).

٣ - الاحترام والتقدير للآخرين، وإنزال الناس منازلهم، ومعرفة نفسية المقابل، فليس كل الناس يتقبل المزاح.

ثانياً: الأمور التي ينبغي اجتنابها في المزاح:

١ - الكذب.

٢ - الإكثار منه، والإفراط فيه، حتى يغلب على المجالس، ويهجر فيها الجدّ والحقّ، ويكون سمتاً لشخص يعرف به، أو لمجموعة لا تجتمع إلا عليه.

فمثل هذا مذموم؛ لأنه مضيع للأوقات، مذهب للهيبة، مُحطّ للشخصية، ولابد أنه مُوقِعٌ في الكذب، والاستهتار، مُجَرّيءٌ للصغير على الكبير، مميت للقلب، مذهب للجِدّ الذي ينبغي أن يتميّز به المسلم في حياته.

٣- المزاح مع النساء الأجانب: فإن ذلك سبب للفتنة، ووقوع الفاحشة، وميل القلوب إلى الحرام.

٤ - الأذى والإضرار بالآخرين، والإساءة إليهم، أو أخذ حقوقهم وترويعهم، أو الضرب الذي يتجاوز به الحدّ، أو الهزل بما فيه ضرر كسلاح وحجارة وغيرها.

فإن مثل هذا يورث الأحقاد والضغائن، وقد يؤدي إلى النزاع والخصام، وينقلب به الهزل إلى جدّ، والودّ إلى حقد، والمحبة إلى كراهية، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ**﴾[٢٠٧]، ومعنى ينزغ: يفسد ويغري بينهم.

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله -: "يأمر الله عباده المؤمنين أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزع الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة"[٢٠٨]اهـ.

وعلى هذا فكثرة المزاح العاري عن ضوابطه مع التجريح والهزل في غير مواضعه من أسباب المنغصات لكسب قلوب الناس، ومن مكدرات ومنغصات وخوارم الأخوة، "فحق على العاقل أن يتقيه، وينزه نفسه عن وصمة مساويه"[٢٠٩].

فينبغي يا أخي أن لا تكثر المزاح، وتفرط فيه، حتى يغلب عليك وخاصة مع إخوانك وأحبابك، بتجريحهم ولمزهم أو بما يخدش من كرامتهم ونحو ذلك، والشيء إذا تجاوز حدّه انقلب ضده.

قال الشاعر:

شرُّ مُزَاحِ المرء لا يُقالُ
وخيرُهُ يا صاحِ لا يُنالُ

وقد يقال كثرة المزاح
من الفتى تدعو إلى التلاحي

إن المزاحَ بدؤه حلاوهْ
لكنما آخره عداوة

يحتدّ منه الرجل الشريف
ويجتري بسُخْفِهِ السخيفُ

من كَثُرَ مزاحُه زالت هيبته

(٢٧) الشـــكر

لا شك أن النّاس يحـبـون من يشكرهم، ويحـبـون من يُثني عليهم، وإن كان الأصل في المسلم أنه يعمل ابتغاء رضا الله عز وجل، ولا ينتظر شكر الناس، ولكن ذلك طبع في البشر، وكما يقولون: "الطبع غلاّب"..

قال ﷺ: "من لم يشكر الناس، لم يشكر الله"(٢١٠).

وعن أنس رضي الله عنه قال: كانت الأنصار يوم الخندق تقول:

نَحْنُ الذين بايعوا مُحَمَّدا

على الجهادِ ما حيينا أبدا

فأجابهم - أي الرسول ﷺ - فقال: "اللهم لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة، فأكرمِ الأنصار والمُهاجرة"(٢١١).

والدعاء بالخير نوع من المدح والثناء، بل هو أبلغ الثناء، كما قال ﷺ: "من صُنِعَ إليه معروف فقال لصاحبه: جزاك الله خيراً؛ فقد أبلغ في الثناء"(٢١٢).

فأنت حينما تدعو لإنسان: (وفقك الله، جزاك الله خيراً، بارك الله فيك، نفع الله بك..) فإن تلك الكلمات الطيبة تكسب بها قلوب الناس، وتشجعهم وتحببهم إليك... فالدعاء بخير شيء عظيم، وكلمة "جزاك الله خيراً، أو الله يرضى عليك، أو حفظك الله.." عظيمة جداً، ومؤثرة في نفس أخيك المسلم...

وهناك أمثلة كثيرة للشكر، والثناء: فمع الزوجة -مثلاً- يقول الرجل لزوجته: جزاكِ الله خيراً، أو سَلِمت يداك، لقد كانت (عشوة) البارحة أو أمس طيبة وحلوة...، والطفل أو الشاب أو الطالب تقول له: أحسنت، ممتاز، بارك الله فيك، نفع الله بك.. وهكذا من الكلمات الطيبة المشجعة.

والمدير والمسؤول لا يكون ناجحاً إن لم يقدم خطابات الشكر والتقدير لمرؤوسيه، فهي مجرد ورقة لا تكلِّف شيئاً، ولكن لها أثر طيب في نفوس الناس وكسبهم.

وهناك فرق بين الشكر والمدح الذي ذمه الشرع، فالشكر على المعروف والثناء على فاعله رجاء أن يتقدم أكثر في فعل الصالحات، ولكن مدح الناس بما ليس فيهم، أو المدح الذي نتأكد أنه سوف يؤدي إلى الفتنة أو الغرور والكبر هو الذي ذمه الشرع.

وفي "صحيح مسلم": باب النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط، وخيف منه فتنة على الممدوح، وساق حديث عبدالرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه قال: مدح رجلٌ رجلاً، عند النبي ﷺ قال: فقال: "ويحَكَ قطعت عُنُقَ صاحبك، قطعت عنق صاحبك" مراراً "إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محَالةَ، فليقل: أَحْسِبُ فُلاناً، واللهُ حسيبُه، ولا أُزكي على الله أحداً، أحسِبُه، إن كان يعلمُ ذَاكَ، كذا وكذا"(٢١٣).

وفي رواية: "إذا رأيتم المدّاحين، فاحثوا في وجوههم التراب"(٢١٤).

ولقد ورد عن الرسول ﷺ المدح على سبيل التشجيع والثناء على الفعل كما في حديث الرجل من الأنصار، وفيه: "... تصدّقَ رجلٌ من دينارِه، من درهمه، من ثوبه، من صاعِ بُره، من صاعِ سَمْرِه (حتى قال) ولو بشق تمرة"، فجاء رجل من الأنصار بِصُرّة كادت كَفّهُ تعجزُ عنها. بل قد عجزت، ثم تتابعَ الناسُ، قال الراوي: حتى رأيتُ كومين من طعامٍ وثياب، حتى رأيت وَجْهَ رسول الله ﷺ يتهلل، كأنه مُذْهَبَةٌ، فقال رسول الله ﷺ: "من سَنّ في الإسلام سُنة حَسنة، فله أجرها، وأجْرُ من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيءٌ..."(٢١٥).

من أسدى لك معروفاً، فاشكره